## خاتمة الكتاب، وفذلكة الحساب

## ملخص حول بعض الكلمات التي تقتضيها الأحوال والأزمنة

وإن كانت أفعال الله – سبحانه وتعالى – لا تعلل لأغراض إلا أنها لا تخلو من المصلحة والحكمة، كم من حكم خفية في كل عمل من الأعمال لا يستطيع أن يدركها العقل الإنساني.

إن جميع المخلوقات التي تعيش في عالم الماديات والمفارقات هذا؛ فهي مسحوقة تحت قدرة الله، وقوته؛ قد خلق الله في السموات وعلى الأرضين مخلوقات جديرة بالحياة فيها. إن وجه الأرض أوطان للأحياء التي تعيش على البر، وجعل الله الأرض وطنًا لكل مخلوق يتنفس. وليست ملكًا لأحد. والله – سبحانه وتعالى – المالك الحقيقي لهذا الكون. وكل المخلوقات التي تتحدث ولها لغة، والأخرى التي لا تتكلم مخلوقاته – سبحانه وتعالى – وعبيده. وقد رفع بعضهم فوق بعض درجات لحكمة ما.

وقد كتب على جبين كل واحد أكله وشربه وما ينقصه وما يكتمل عنده وحالاته الأخرى. من الإبرة إلى الفتلة والخيط، وحكم. وقد ميز بعض عباده وأعطهم ملكًا. كما أنه يحكم على بعض عباده بالفقر بعد الغنى، كما أنه – سبحانه وتعالى – ينقل عباده على وجه الأرض من مكان إلى آخر، من يستقر في مكان ما، ويغتر ويتكبر، فينقله من ذلك المكان، ويقرَّه في مكان آخر.

ولا يهتم الله – سبحانه وتعالى – بجحود الكفار وإنكاره لهم فيجعلهم فوق الآخرين حتى ينبههم. إذ أخذ بلاد الروم من يد الكفار وأعطاها للمؤمنين من عباده. كما أنه – سبحانه وتعالى – قد أخذ خراسان وإيران والعراق من يد أهل السنة والجماعة وأعطاها للرافضة. إن وجه الأرض مائدة الله المفتوحة.

ما الفرق بين الصديق والعدو في مائدة الغنائم هذه؟، وفقًا لمعنى هذين البيتين، يصنع الله – سبحانه وتعالى – في ملكه ما يشاء.

لا تستمر في الجدال فسيفه القاطع
لا يسأل عما يفعل (قد بت في الأمور)

إن الله – جل جلاله – جعل هذه الدنيا الأسباب، وقد أظهر ذلك لنا – عمليًّا – في كل ما يُبنى وينهار من المقدرات التي كتبت على حياة الناس من صنع الله – سبحانه وتعالى –، وأنه – سبحانه وتعالى – متصرف في الأمور من خلف ستار الغيب مباشرة، ويجلي لنا قدرته.

إن كل ما يتم في الدنيا من أعمال وأفعال وأوضاع ومواقف، ما هي إلا أثر من آثار قدرة الله تعالى الذي يفعل ما يشاء ويقدر عليه. وإن الله – سبحانه وتعالى – قد وهب للناس إرادة جزئية، عظمته وجوده وكرمه، وخلق أسبابها، وأوجد القوة والقدرة عندما أراد أن تتحقق الإرادة الجزئية قد بيّن الله – سبحانه وتعالى – أوامره الكريمة في أجزاء كثيرة من القرآن الكريم. الطرق السوية التي يجب أن نسلكها لنيل رغباتنا وندرك آمالنا، وإن الله – سبحانه وتعالى – أراد أن يحتفظ الناس بقوتهم البدنية؛ فأمرهم بالأكل والشرب كما جاء في سورة الأعراف ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾[1] كما أمرنا بالعدل والإحسان؛ حتى يصلح المجتمع الإنساني، وأمرنا كذلك في حالة الحروب أن نكون مستعدين كما جاء في سورة الأنفال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾[2].

وكل ما يلزم العبد أن يطيع أوامر الله – سبحانه وتعالى – العالية، وأن يبتعد عن الإهمال والنقصان. وعلى العبد أن يبذل كل جهد في تحقيق شيء، ثم يترك أسباب وجوده وتحققه إليه سبحانه وتعالى الذي يخلق الأسباب. إذا أراد أن يسببه ويحققه، وإذا لم يرد لا يخلق. ليس في يد العبد تحقيق آماله، ولكن عليه أن يبذل كل جهده لتحقيقها ثم يتركها جانبًا. وأما إذا أهمل العبد أسباب الأعمال مقصرًا في طرق السعي يكون قد خالف أوامر الله واستحق جزاءه وعتابه. ولذا يحذرنا الله – سبحانه وتعالى – من الإهمال والكسل بأن يسلط الله سبحانه وتعالى علينا أعداءنا، ويقلل ما في يدنا أو يسلبه كله. فإذا لم ننتبه لذلك متيقظين للعمل على كسب ما سلب منا، وبذل أقصى الجهود،

(1) سورة الأعراف، من الآية 31.

(2) سورة الأنفال، من الآية 60.

فيزيد عتاب الله – عندئذ – وجزاؤه كذلك، وتبرز أوضاع أخرى غير مرغوبة فيها.

**ونعود إلى موضوعنا بعد هذه المقدمة:**

إن هياج أعدائنا اليوم وبغيهم وشقاوتهم ضدنا ليست إلا لقلة الأموال، والفساد الذي عمّ جميع أمور الجيش والخزانة والرعبة، وعجزنا عن الاهتداء إلى الطريق الذي يؤدي إلى تصحيح هذه الأوضاع والتسيب في جميع أعمالنا. ويجب علينا أن نبدأ في القضاء على هذه العيوب عن طريق قويم، نلجأ إلى القوانين التي وضعها الأقدمون، وأن نطور هذه القوانين وننفذها. وإن المرحومين من علماء الأتراك العظام من مثل ابن كمال باشا وأبي السعود، قد اهتموا كثيرًا بتوفيق تلك القوانين إلى قوانين الشريعة الغرّاء، وذلك في عهود السلاطين الذين فتحوا هذه البلاد بقوة السيف والتدابير الصحيحة، وخاصة السلطان ياوز سليم، والسلطان سليمان خان، وبذلا كل جهدهما لإكمال تلك القوانين بالقضاء على ما فيها من نقص. إن أسس الدولة العثمانية هذه اكتسبت قوة ومتانة بهذه الجهود المبذولة، ولم تتزحزح إثر اهتزازات قوية أو ضعيفة، وظن الذين أتوا من بعدهم أن كل ما يعلمونه يمكن أن يكون قانونيًّا. أي نسي الوصول إلى الحلول عن طريق القوانين.

وإذا أردنا بعد الآن أن نسترد ما أضعناه، ونصحح ما فسد؛ فهذا متعلق بالعمل وفق ما ينص عليه هذا القانون القديم. وعلى السلطان ملجأ الناس، والذي أمده الله – سبحانه وتعالى – بعمر مديد إن أراد ينفذ هذه القوانين بسيف الشريعة وقانون السياسة باحثًا عن الحلول الصحيحة.

ألا فليساعده الله – سبحانه وتعالى – على تحقيق الآمال، آمين.

obeikandi.com